

الرأي بين استبداد الفوضى وحرية النظام إيلي الخوري

لقد كان الدافع إلى كتابة هذه الورقة، أن أحاول الإجابة عن أسئلة عديدة تُطرح في الاجتماعات الحزبية حول مفهوم " حق إبداء الرأي " الوارد في المادة الثامنة من دستور الحزب، وإذا بي - بعدما جمعت المادة الفكرية - أمام جملة من المفاهيم مرتبطة في شبكة واحدة، وتقع جميعها تحت مظلة " مفهوم النظام "، النظام كما عناه الزعيم بمدلوله العميق والشامل، أي نظام الفكر والنهج ونظام الشكل.

وهذه الدراسة - المدخل هي بمجملها مقتطفات من كتابات الزعيم، ومن رسائله التوجيهية خاصّة. وما قمت به لا يزيد كثيراً عن التجميع والتصنيف في شكل عناوين، وما جمعته وصنفته هو بعضٌ مما قرأته ولا يشتمل بالتأكيد على كل ما كتب الزعيم في هذا المجال.

مقطع من خط الفكر السوري

لم يكن قول الفيلسوف السوري الخالد زينون الرواقي: " إن لنا لساناً واحداً وأذنين ومن هذا نفهم أنّ علينا أن نسمع أكثر مما نتكلم " ¹، من الكلام الملقى على عواهنه، بل هو بحق، تعبير دقيق عن حقيقة الفلسفة الرواقية في أنها فلسفة عملية لا جدل لفظي أو لغو وحشو، إذ لا يقف قول زينون عند حدود المعنى الحرفي، أو عند حدود التأدب في الحديث ومستلزمات الرصانة والوقار، أو عند ضرورة فهم الموضوع قبل التكلم به وحسب، بل يتعدى ذلك إلى الناحية العملية، إذ إن كثرة الجعجة لا تعني أن الطحين أصبح جاهزاً، فعندما يكثر الكلام يقلّ العمل.

وقد كرّر معنى هذا القول تلامذة زينون، ومنهم أفيكنتات ² الذي قال: " إذا كان هناك فن الكلام فهناك فن الإصغاء أيضاً " ³، وأضاف أن " الصمت أفضل من التكلم بأمر لم نستوعبه بشكل يمكّننا من المناقشة التي تفيد السامعين. " ⁴ وقال أفيكنتات في مكان آخر: " إن الذي يفتح دكاناً لبيع العقاقير الطبية كيف يمكن أن ينجح وهو يجهل كيفية تركيبها واستعمالها لصحة الأبدان. فإذا كانت الأبدان تطلب فهماً أعمق، فهل صحة العقول تنال بأسهل من صحة الأبدان؟! تمرّس بالحكمة قبل أن تحاول أن تدّعي تعليمها. " ⁵

وليس الناصري ابن مريم، بعيداً عن الرواقية في الزمن ولا في خط الفكر، فنراه يقول: " إن الحصاد كثير والفلة قليلون " ⁶. كما نبّه قائلاً: " لا تحكموا بحسب الظاهر لكن احكموا حكماً عادلاً " ⁷ (قال ذلك في معرض حديثه عن يوم السبت)

¹ عبد المسيح، جورج: «من خط الفكر السوري: زينون الرواقي»، دار الركن للطباعة والنشر، بيروت، 1972، ص 3.

² أفيكنتات أو أبكتيتوس: ولد في هيرابولس، منبج حالياً، وهي مدينة في محافظة حلب. كان عبداً كسر سيده رجله، ولم يصرخ مظهرًا هزاه من الألم، وقد أعتق فيما بعد وأسس مدرسة لتعليم الصبر على الشدائد.

³ جورج عبد المسيح: قواعد السلوكية الرواقية، دار الركن، الطبعة الثانية، ص 6

⁴ المرجع إياه، ص 41

⁵ المرجع إياه، ص 107

⁶ إنجيل مثنى، 37:9؛ إنجيل لوقا 2:10.

⁷ إنجيل يوحنا 7: 24

ومثل هذا نراه في دعوة محمد التي تطعمت بنكهة الفكر السوري، والتي لاقت من نفاق العرب وعتهم ما جعل الآيات تصف المنافقين بحزب الشيطان، وتعدهم بالخسران وتفضل المجاهدين على القاعدين.⁸

هذا هو شأن الرسائل العظيمة جميعها، فهي تحتاج إلى رجال يتدبرونها ويعملون على نشرها لا إلى جهال مشككين أو إلى اتكاليين متمتمين بألسنتهم. وإذا كان مبدأ زينون " القائل بأن الفكر أو العقل هو جوهر الحياة الانسانية " ⁹ قد تعطل بجمود الشرع الديني وسيطرة فكرة الله التي أضعفت منزلة الحكمة البشرية تجاه حكمة الله وتدبيره، فإن مبدأ أنطون سعادته القائل بأن "المجتمع معرفة والمعرفة قوة" قد أعاد للعقل مكانته واتجاهه، مكانته باعتباره شرعاً أعلى، واتجاهه العامل على تحسين الحياة الانسانية.

وسعادته كغيره من أصحاب الرسائل كان يسعى إلى من يسمع فيعي، وإلى من يفهم النظام فيطبع؛ كان يسعى إلى من يدرس فيثق ويتيقن ويؤمن ويعمل بإرادة واضحة وعزيمة صادقة، إلى من يعي المهمة ويلهج بحقيقة العقيدة، لا إلى من يلج، إلى من يعمل مؤمناً " بقوة الحركة القومية الاجتماعية ومقدرتها على التغلب على كل صعوبة".¹⁰، لا إلى من ينهزم عند أول صدمة.

ففي رسالة منه إلى الرفيق وديع عبد المسيح يقول:

" أنا لست طامعاً في شيء شخصي. وإنني أقوم بتأدية رسالتي كما يليق بي وبها ولن أرضى خطة غير ذلك. وكلّ من يعدّ نفسه سوريًا قوميًا صحيحًا له حقّ إبداء الرأي من غير أن يوقف أو يمتنع عن تنفيذ أمر صدر. وإبداء الرأي يجب أن يكون لدى المراجع المختصة فإذا صدر الأمر فيجب عليه التنفيذ بدون تردد أو إضاعة وقت. فمن لا يقدر على ذلك، فالأوفق له ألا يضع نفسه تحت هذا الحمل".¹¹

وهو يتوجّه إلى السوريين في ختام مقالاته التي عنوانت " الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية " بدعوتهم إلى ترك اتكالية التميّ والاتجاه نحو القصد الواضح والعمل الهادف، إذ يقول:

" إن كلّ سوري وسورية يغاران فعلاً على شرف قوميتهما ومصّلحة شعبيهما ورفاهية وطنهما يجب أن يعلما أن أمانيهما لخير أمتهما ووطنهما لا تتحقق بالكسل واللامبالاة ولا بمجرد التميّ، بل بدراسة القضية القومية الاجتماعية المقدّسة درساً صحيحاً في مبادئها التي نشأت عليها، وبالقيام بالواجب نحو هذه القضية".¹²

ولكن للأسف نرى الزعيم يتعرّض في مغتربه القسري إلى " ضغط عصبي وتعب فيزيائي دائمين"¹³ وتكاد ثقته بمهاجري أميركة الجنوبية تتلاشى لكثرة ما سمع من كلام وقلة ما رأى من عمل¹⁴، فبدلاً من أن يفكر بعض القوميين في تحرير نفسه

سورة النساء، الآية 93: فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلّما وعد الله الحسن، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً.⁸

أنطون سعادته: الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية، دار الركن، الطبعة الخامسة 1995، ص 84⁹

أنطون سعادته: الدليل إلى العقيدة السورية القومية الاجتماعية، دار الركن، الطبعة الثانية 1993، ص 144¹⁰

أنطون سعادته: الآثار الكاملة، الرسائل، ج 1، ص 250¹¹

أنطون سعادته: الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية، ص 287¹²

أنطون سعادته: الآثار الكاملة، الرسائل، ج 2، ص 445¹³

أنطون سعادته: الآثار الكاملة، الرسائل، ج 1، ص 263¹⁴

وجسمه من المتاعب الباطلة نراهم يفكرّون في كيف يعوّضون عن تفكيره بتفكيرهم،¹⁵ فينبّه قائلًا: " إن خطة عملي واضحة في فكري. وما أحتاج إليه هو العمل وإمكانيات توزيعه ووجود المستعدّين للتنفيذ وليس للأراء".¹⁶ وهنا يمكننا أن نسأل: ما الذي يدفع المرء إلى العمل لقضية ما؟ إنه بلا شك الإيمان بهذه القضية النابع من الفهم والافتناع والثقة بها وبالعاملين لها.

مبدأ الثقة

يقول الزعيم في رسالة منه إلى رئيس وأعضاء مجلس إدارة " سورية الجديدة": " إن مبدأ أساسيًا من مبادئ الحزب السوري القومي المناقبية هو مبدأ الثقة، فعلى أساس الثقة تقوم حركتنا وبالثقة نعمل. ولكن الثقة تمتحن.. ومراجع الحزب لا تفهم الثقة كشيء شعري خيالي بل كشيء حقيقي واقعي".¹⁷ وفي رسالة منه إلى الرفيق وليم بحليس يقول: " الثقة أساس سياسي راق، الثقة ركن من الأركان الأولية. وهذه الثقة يجب أن تكون تامة متبادلة بين الجميع بالنسبة إلى الصلاحية والاختصاص. فالمختصون بالإذاعة مثلاً، يجب أن يتقوا من جهة المختصين بالسياسة بأنهم يدركون مهمتهم ويعرفون الأصلح ويغارون على المصلحة مثل الأولين..والذين يحبّون الاستفادة الفردية يجب أن لا يعرفوا الخطط ويثيروا الشكوك حولهم وحول المراجع العليا لكي يستفيدوا. ويجب أن يكون عندهم شعور حيّ بمسؤولية العاملين ووجوب التخفيف عنهم. والرجال الذين يحبّون البحث لولع خاص بهم أو ليشبعوا جوعهم إلى الحقائق يجب أن لا يكونوا كالأطفال لا يقدرّون أن يدرسوا شيئاً بالبحث والتأمل ولا يتعلمون شيئاً إلا بالسؤال ما هذا، ولماذا ذلك، ومن أين ذلك؟ وبطلب الجواب من أحد العاملين ليل نهار للقيام بواجبات مسؤولياتهم".¹⁸

وفي رسالة منه أيضاً إلى الرفيق ذاته اتخذت صفة البلاغ يقول " فكلّ سوري قومي يقيم من نفسه مفتشاً إدارياً على الرؤساء الحائزين على الثقة يخرج على الدستور والقوانين ويكون عاملاً على توليد الشك والفوضى في الأوساط القومية. فهو عدوّ الحركة السورية القومية، لأنه عدوّ نظامها وعامل من عمال الهدم والتخريب. ولكن إذا وجد أحد القوميين ملاحظة وثيقة مؤيدة بالشواهد، فالدستور يعطيه حق إبدائها للمراجع المختصة، أو لأي مرجع أعلى يختاره. ولكن الإدارة الحزبية لا تسمح له بالسعي فيما بين الأعضاء لتوليد شكوك وشائعات تهدم ثقة القوميين بإدارتهم ورؤسائهم من غير سبب حقيقي عليه برهان جليّ قاطع. إن وساوس بعض الأعضاء الفاقدي الثقة يجب أن تبقى في رؤوسهم فلا أحد يحاسبهم عليها وهي باقية هناك، ولكن متى أخذوا ينشرونها بين الصفوف ليزعزعوا ثقة الرفقاء القوميين فحينئذ لا بدّ من الالتجاء إلى محاسبتهم ومحاكمتهم على هذه الجريمة".¹⁹ ويذكرنا هذا بالناصرى حين قال: " ومن شكك أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فأجدر له لو علّق في عنقه حجر الرّحى وزجّ في لجة البحر"²⁰ (كان الناصري يشير إلى أطفال حضروا اللقاء، حيث أخذ أحدهم وأقامه وسط الجمع وضمّه إلى صدره)

¹⁵ أنطون سعادة: الآثار الكاملة، الرسائل، ج 2، ص 445

¹⁶ المرجع إياه، ص 448

¹⁷ المرجع إياه، ص 109

¹⁸ المرجع إياه، ص 446-447

¹⁹ المرجع إياه، ص 411-412

الكتاب المقدس، دار المشرق، طبعة 1985 إنجيل متى 18: 6 وإنجيل مرقس 9: 41 وإنجيل لوقا 20: 17

والزعيم يأنف من المجادلين المشككين، فيقول في مكان آخر:

" إن نظريات الزعيم وخططه، فضلاً عن تعاليمه، كانت كلها مخالفة لما كان منتظرًا ومقبولاً أو معقولاً عند غيره، فجاءت نتائج تلك النظريات والخطط فوق ما كان منتظرًا ومعقولاً. وهذا برهان كافٍ لتأييد رأينا أنه كان الأفضل للمنتقدين والمجادلين لو اكتفوا بأخذ النتائج والاستفادة منها لتقوية الحركة، بدلاً من التوجّه إلى الزعيم بهذه الروحية المشككة التي ليست روحية الجندي تجاه القائد، ولا روحية التلميذ تجاه المعلم، والتي تكاد تقلل ثقة الزعيم بالعناصر العاملة معه وتكاد تثبط عزيمته." ²¹

والزعيم يشدّد على مبدأ الثقة في كلّ ساحة وهو يدعو جميع السوريين إلى غرسه في نفوسهم، ففي المحاضرة الأولى يقول: " لو بقيت تلك العوامل الانحرافية فاعلة لوصلنا إلى انعدام الثقة بأنفسنا وإلى الشك في مقاصدنا وطبيعتنا وحقيقتنا، في نفوسنا التي هي الضمان الأخير." ²² وفي مقالة " بين الهوس والتدين "، يذكر قول الرسول محمد: " لو تكاشفتما لما تراقبتما " ويعلق قائلاً " إننا نقول لجميع السوريين، محمديين ومسيحيين: يجب عليكم أن تتكاشفوا فتعلم كلّ فئة ما تُضمّر لها الفئة الأخرى بكل ما فيه من جميل وقبيح. فإذا تكاشفتما فهو أول الطريق إلى إصلاح حالكم وإقالة عثاركم." ²³

وهنا يمكننا أن نسأل: ما الذي يعزّز الثقة وما الذي يززعها؟

إن الوجدان القومي لا يولد إلا بالثقة، (يقول الزعيم في خطاب أول حزيران 1935: ليست القومية إلا ثقة القوم بأنفسهم واعتماد الأمة على نفسها) والنزعة الفردية لا تنقشى إلا بالشك، ولعلّ أهم ما يعزز الثقة هو الوضوح، والصراحة، والروية في الحكم على الأشياء، وأهم ما يززعها هو الغموض، والمواربة، والتسرّع في الحكم. وأنا سأحدث عن النقطة الأخيرة فقط، أعني مسألة التسرّع في الحكم، مع ما للنقاط الأخرى من أهمية، وذلك لعلاقة هذه النقطة مباشرة بنظام النهج.

في شروط الحكم الدقيق

قد تكون أهم شروط الحكم الدقيق ثلاثة: الروية والتعمق وتجنّب الميل.
فالتسرّع في الحكم هو أول أسباب الخطأ، وإبليس الذي أبقى واستكبر حسب الرواية الدينية ما فعل ذلك إلا لأنه تسرّع في حكمه. (يقال العجلة من الشيطان)
وكم من الأحكام - حول تفاصيل حياتنا اليومية البسيطة أو حول أمور خطيرة - تأتي ناقصة وظالمة لعدم كفاية المعطيات أو الأدلة، وقد عبّر أحد الشعراء عن ناحية من هذه المسألة، قائلاً:

تأنّ ولا تعجل بلومك صاحباً لعلّ له عذراً وأنت تلوم

في إحدى رسائله يضرب الزعيم مثلاً حول أمر بسيط، ويتعدّى هذا المثل بدلالاته الموضوع المذكور، يقول: " وكم من الحركات الفاصلة في لعبة الشطرنج سببت في البدء استغراب الكثير من المراقبين الذين يعرفون اللعبة وأدهشتهم، فعدها غلطاً فاحشاً أو خسارة وقت أو دليلاً على عدم إدراك حقيقة الموقف وعوامل القضية إدراكاً جلياً، فلا يمضي وقت على سياق التطور حتى يظهر جلياً أن هذه الحركة أو الحركات هي التي أنقذت الموقف وحلّت القضية أو ساعدت على حلّها وكانت أهم الحركات التي أوجبت ربح الدق." ²⁴

²¹ أنطون سعاده: الأعمال الأدبية، دار الركن، الجزء الثاني ص 250

²² أنطون سعاده: الدليل إلى العقيدة السورية القومية الاجتماعية، ص 56

²³ أنطون سعاده: الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية، ص 135

²⁴ المرجع إياه، ص 160

والغوص إلى داخلية المظاهر أمر أساسي، إذ لا يخفى على المتبصر أن " حلّ كل قضية يتطلب معرفة جميع أضلاعها وإلا كان حلاً فاسداً لا يثبت".²⁵
أحد الشعراء التّموزيين (أدونيس) وصف العقيدة القومية الاجتماعية في قصيدة عنوانها: "قالت الأرض"، بالبيت التالي:

رُبَّ نور كان الحياة لشعب
لمَحْتَه عين الظلام سوادا
يومها كان على سذاجة الفطرة، ثم أصيب بمرض بصيريّ (من البصيرة) اسمه
التسطيح فاسودّ هذا النور في عينه، لأنه لم يكن قد غاص إلى داخلية العقيدة، وانهمز.
يقول الزعيم في رسالة منه إلى غسان تويني - شريك أدونيس في المرض إيّاه - إنه
مهما كان إدراك هذا الأخير عاليًا، " فإن قصر المدّة [مدّة الانتماء] ومحدودية
الاختبارات يوجبان اتباع قاعدة التحفظ المعقول في الآراء الأخيرة أو النهائية أو
الجازمة في قضايا لم تنكشف كلّ نواحيها ولم تحصل كلّ عواملها الخفية والمعلنة
وأسباب الحكم فيها. وإن من القواعد الضرورية لتفكيرنا القومي الاجتماعي الحرص
على إعطاء القضايا حقها من الرصانة والتقدير والتحفظ وإعمال الفكر الواقية من
خطر الزلل والمُقللة له".²⁶

ومن الأمور التي تفسد الحكم دخول الميول الشخصية أو الانفعال العاطفي عليه. وفي
الحقيقة لم يقدّم الزعيم في كلّ ما كتب وخطب آراءً ناتجة عن "دافع ذاتي فردي" أو
مجرد أقوال ذاتية استبدادية لا تأخذ "الوجه ولا الوضع بعين الاعتبار"، بل أوجد نظرة
كلية جديدة وخطة شاملة تتناولان حياة المجتمع السوري، وهذه النظرة والخطة لا يمكن
أن تكونا مجموعة آراء شخصية، ولو كانتا كذلك لما أمكن الاستناد إليهما " لتقرير حقيقة
إنسانية لها علاقة بالإنسان - المجتمع".²⁷

إن من يصيبه الهوس لا يعود يرى إلا موضوع هوسه، ولكن متى تبدّلت الأمور
والأحوال ينسى هو نفسه ما كان يظنه كلّ الحقيقة.

لقد انتقد أحد الشعراء تأثير الميول فقال:

وعين الرضا عن كلّ عيب كليله
ولكن عين السخط تبدي المساويا
ونحن نريد أن تكون لنا عين العقل التي ترى العيب فتنّبه وتوجّه، وترى الصحيح فتثني
وتنوّه.

الفرق بين السياسة والاجتماع

تكلّمنا في مسألة الحكم بصورة عامة، أعني الحكم في مطلق الأشياء، البسيط منها
والمركّب، الصغير منها والكبير. ولكن إذا كان الحكم يتطلب التعمّق، فالتعمّق يستوجب
الاختصاص، خاصّة في الأمور الأساسية المتعلقة بحياة المجتمع. إذ لا يمكن أن يكون
المرء عالمًا اجتماعيًا أو خبيرًا بالاجتماع أو قائدًا سياسيًا لمجرد درسه موادّ علوم
اجتماعية أو سياسية وحصوله على لقب دكتور، وإذا كان هذا الأخير لا يصلح للقيادة
لمجرد أنه قد نال اللقب، فهل ينفذ رأي رجل عادي غير متخصصّ في علم وفنّ خطير
كالسياسة مثلاً، وهل يجوز أن يتدخّل فيها؟

لنرجع أولاً إلى "نشوء الأمم" فنرى:

"الحقوق السياسية في المدينة السورية البحرية لم تقع قط في ورطة استبداد الجمهور
بواسطة تدخّل الأفراد، كما حدث في أثينة المدينة الإغريقية لعهد بركلس الذهبي حيث

²⁵ المرجع إيّاه، ص 135

²⁶ أنطون سعاده: الآثار الكاملة، الرسائل، ج 3، ص 622

²⁷ أنطون سعاده: الدليل إلى العقيدة السورية القومية الاجتماعية، ص 110

يحق لكل فرد أن يتهم أي موظف في الدولة، حين انتهاء مدّته، بالخروج على القانون، داعمًا تهمته بأية صفة من هذه الصفات المطاطة: عدم دستورية أعماله، أو أنها غير مرغوب فيها، أو أن نيّاته كانت سيئة إلخ.

إن العقل السوري العملي لم يكن يميل إلى تخيلات فاسدة من الواجهة العملية. ولذلك فهو قد اكتفى من التجربة الإغريقية للحكم الشعبي، بواسطة الشعب أجمع، بالمشاهدة. إنه لخيال بديع في نظر غيري وخيال سخيّف في رأيي أن يكون كلّ فرد من أفراد المدينة المعترف بهم "شريكًا" فعليًا في إدارة الدولة. إن المدينة السورية ظلت محافظة على الفرق بين السياسة والاجتماع واضحًا. وهذا الفرق هو ما مكّن الدولة من اطراد تقدّمها.²⁸

وأيضًا: "إن محاولة الجمهورية الإغريقية ألغت الدولة أو كادت تلغيها. وإن الأسلوب الذي جرت عليه الدولة في تقدّمها وارتقائها كان الأسلوب السوري الذي ارتقى في قرطاضة إلى الديمقراطية ووضوح الحقوق المدنية والحقوق الشخصية مع بقاء الدولة شيئاً متميزاً عن الشعب، مؤسسة لا يمكن أن تعرّض لعبث الجمهور."²⁹

وإذا انتقلنا إلى الرسائل التوجيهية نجد إيضاحاتٍ تفصيليةً دقيقة تجيب عن أسئلة كثيرة، فضلاً عن السؤال المتقدم، ولا حاجة لي سوى إيرادها دون تعليق:

"إن النظام الإداري القومي لا يخول الأعضاء أو المسؤولين بدرجة أدنى الحكم أو التخلّ في مسؤولية المسؤولين بدرجة أعلى ومعارضة أعمالهم الإدارية والتدابير التي يتخذونها لمصلحة العمل القومي. فرجال الإدارة مسؤولون تجاه رؤسائهم فقط، وليس تجاه المرؤوسين.³⁰ فإذا وجد أحدهم ملاحظة على أغلاط وأحبّ إبداءها فيكون ذلك إما بمراجعة القائم بالإدارة في دائرة عمله وإما برفع الملاحظة أو الشكوى إلى مرجع أعلى، من غير التصديّ لإحباط التدبير أو عدم تنفيذ ما يصيبه من التدابير المفروضة. ولا يوجد غير هاتين الطريقتين ضمن النظام. ولا يعني المرؤوس مقدار إصابة الرئيس في رأيه وتدبيره فهذا يعني رئيس الرئيس."³¹

وأيضًا: "فالأعضاء يجب أن يكونوا قبل كلّ شيء قوميين وأن يقوموا بواجباتهم القومية قبل التقدّم إلى أي عمل سياسي. ولا ينتدب للأعمال السياسية في الحزب إلا المؤهلون لذلك، الذين يأتيهم تكليف رسمي. أما باقي الأعضاء فيجب أن يتمّموا واجباتهم القومية من ثقافة ونظام واجتماع وتمرّن وبتّ دعاوة واثقين بالقائمين بمختلف الأعمال المنتدبين لها."³²

وأيضًا: "لتعمل إدارتك العليا كلّ ما تقدر عليه في ميدان السياسة والدبلوماسية فذلك من اختصاصها. أما أنتم فإياكم من صرف عقولكم وقلوبكم إلى السياسة والدبلوماسية واحذروا من اختلاط السياسة والدبلوماسية وأغراضهما بعقيدتكم وإيمانكم وعناصر حيويّكم الأساسية لئلا تكون العاقبة وخيمة."³³

²⁸ أنطون سعاده: نشوء الأمم، الكتاب الأول، ط 1951، ص 117-118

²⁹ أنطون سعاده: نشوء الأمم، ص 120

³⁰ في قسم المسؤولية نجد العبارة التالية: "...متحملاً مسؤولياتها تجاه الزعيم والمراجع العليا.."

³¹ أنطون سعاده: الآثار الكاملة، الرسائل، ج 2، ص 414

من رسالة الزعيم إلى الرفيق صلاح الدين الأيوبي بتاريخ 11 كانون الأول 1937، «النظام الجديد»، الحلقة

³² 9، آب 1950، ص 44-46.

³³ أنطون سعاده: الدليل إلى العقيدة السورية القومية الاجتماعية، ص 61

وأيضاً: " إن واجبات الأعضاء أن يكونوا قوميين والإدارة تعيّن للمؤهلين منهم واجباتٍ سياسية أو إدارية أو إذاعية أو غيرها." ³⁴

وأيضاً: "إن الاجتماعات العامة في المديرية ليس لها صفة جلسات تعقد للنظر في الأمور والتدابير الإدارية التي يحسن اتخاذها، بل أهم أغراضها أن تكون واسطة لتوثيق العلاقة بين الإدارة والأعضاء وإطلاع هؤلاء على سير الحركة ولسماع معلوماتهم وآرائهم ولدرس العقيدة القومية ومقابلة النظريات المعاكسة عليها، ليثق الأعضاء بقوة مبادئ حزبهم وتفوقها." ³⁵

ومعنى هذا الكلام الأخير، أنه لا يحقّ للرفقاء في الاجتماع الرسمي التداول في تدابير إدارية أو اتخاذ قرارات، لأنه ليس هذا شأنهم، بل هو شأن المدير الذي يأخذ القرار على عاتقه، (بعد التداول في جلسات الهيئة) ولا يأخذ المدير آراء الرفقاء حول فكرة أو نشاط ما، باعتبارها أجوبة عن استفتاء ملزم بنتيجة عدد الأصوات، لأن ذلك ينقلنا من نهج "الديموقراطية التعبيرية" إلى هرج الديموقراطية العددية، أي من النظام إلى الفوضى.

36

لقد أوضحنا الفرق بين الاجتماع والسياسة، فما هي أهمية المؤسسات كمعهد ومختبر وضابط للإدارة والسياسة؟

المؤسسات

لنر الآن الأهمية الخطيرة للمؤسسات وكيف تنقل المعارف وتصل الموهب وكيف يكفل النظام توحيد العمل في الاتجاه الصحيح.

يقول الزعيم في خطاب أول آذار عام 1938:

" إن إنشاء المؤسسات ووضع التشريع هو أعظم أعمالنا بعد تأسيس القضية القومية، لأن المؤسسات هي التي تحفظ وحدة الاتجاه ووحدة العمل، وهي الضامن الوحيد لاستمرار السياسة والاستفادة من الاختبارات. بواسطة مؤسساتنا الحزبية المنظمة تمكنا من القضاء على الفوضى وترقية خططنا وأساليبنا. ولولا مؤسساتنا القوية ونظامها المتين لكانت العوامل الشخصية الأنانية التي برزت في بعض الظروف تمكنت من تسخير جهاد ألوف السوريين والسوريّات لمطامعها." ³⁷

سأبدأ من الفكرة الأخيرة، مبيّناً كيف تقف المؤسسات سداً ضد العوامل الشخصية، ثم أنتقل إلى توضيح أهميتها الخطيرة في الإدارة والضبط.

كنا قد تناولنا مسألة "الثقة" كأهم عنصر من عناصر الروحية القومية، ولكن هذه الروحية قد يصاحبها في بداية تولدها حماس غير ناضج، وما أن يتعرض حاملها لصدمات طبيعية " تمرّ في حياة كل حزب يتطلع إلى المسؤوليات العامة " ³⁸ حتى يتزعزع، ولا يسلم منها إلا بخضوعه للضوابط والتوجيهات التي تصدر عن المؤسسة الحزبية.

وقد تناول الزعيم هذه النقطة في أكثر من مناسبة، فهو يقول في إحدى رسائله: "أما الروحية القومية عند القوميّين الجدد في المهجر [ويصح أن نقول في الوطن] فلا تزال

³⁴ أنطون سعاده: الآثار الكاملة، الرسائل، ج 1، ص 20-21

³⁵ أنطون سعاده: الآثار الكاملة، الرسائل، ج 2، ص 406

³⁶ اللّهج: الطريق الواضحة. الهرج: الفتنة والاختلاط. الهرج: الأحمق، الضعيف من كل شيء.

³⁷ سعاده في أول آذار ص 48

³⁸ سعاده في أول آذار ص 45

خيالية في الغالب وتحتاج إلى دور تنظيم جدّي.. ولكن إيباك واليأس وإيباك والتفائل الزائد عن الحاجة".³⁹

وأيضاً: " إنه لا يكفي أن نعلم أن هنالك انضمامات جديدة، لأن هذه الانضمامات إذا لم تنظم وتأخذ سلوكية الحزب العالية ويُسهّل لها القيام بالواجب وتدرّب على مختلف الأعمال الضرورية لتقدّم الحركة القومية كانت شيئاً لا قيمة له".⁴⁰

إن وجود مؤسسة يعني وجود هدف، وخطة، وعمل أو نشاط منظم، ومسؤوليات، وصلاحيات، واجتماعات، وجلسات، وتنظيم، وتوجيه، وتدبير، وقرار، وأمر، والتزام، ومحاسبة...

بكلمة أخرى، إن المؤسسة تعني وجود عمل جماعي تعاوني منظم، وبغياب المؤسسة تجري الأعمال " على طريقة التشاور العائلي والتنفيذ الفردي غير القانوني".⁴¹ ولذلك يكتسب الاجتماع والجلسة أهمية خطيرة لأنهما المكان العملي السليم لإدارة الأمور وضبطها، ومنع التصرف الفردي العشوائي. إذ "ليس تجاه النظام مسائل طفيفة ومسائل غير طفيفة".⁴² يقول الزعيم:

" إن المحادثات الإفرادية لا مسؤولية فيها ولا شعور بالمسؤولية ولا تعطي القضايا شكلها الجدّي. وما يحدث في الاجتماع من انبثاق أفكار وآراء جديدة على ضوء المناقشات وتقليب الأمور على ألف وجه قلما يحدث في المحادثات الإفرادية. ولو كانت النتيجة واحدة بحصول الجلسات أو بعدم حدوثها لما كنتُ عيّنت لجنة قط.. فتعيينهم أعضاء لجنة [الكلام هنا على لجنة إدارة جريدة "سورية الجديدة"] هو للوصول إلى نتائج لا تحصل إلا باجتماعهم هيئة جدية تشعر بالمسؤولية ويتضافر أعضاؤها على إعطاء قراراتها صفة مجموعية تكون لها هيبة وتأثيراً وتعطي نتائج مرغوبة".⁴³

وأيضاً: إن أعضاء " لجنة أو مجلس لا يكونون لجنة أو مجلساً، إلا إذا عقدوا جلسات نظامية مستمرة ينظرون فيها في الأمور العارضة بصورة رسمية تدون فيها مناقشاتهم وآراؤهم ويوحدون نظرياتهم وأعمالهم ويضعون خطة لمعالجة الموقف يقتسمون تنفيذها فيما بينهم ويوحدون مساعيهم فيها. فإذا لم يفعلوا ذلك لم تكن لهم شخصية شرعية أو معنوية واحدة ولا يمكن التكلم عنهم بصفتهم هيئة واحدة. وما الفرق الذي حدث بين وجودهم كرفقاء غيورين ووجودهم كأعضاء لجنة مسؤولة؟ مما لا شك فيه أن تعيينهم حدث لإكسابهم صفة فوق صفة مجرد رفقاء غيورين يدلي كلّ واحد منهم برأي اعتباري في محله التجاري أو في السوق أو على التلفون، فلا يكون درساً كاملاً في جلسة يصير فيها درس هذه الآراء ومبلغ فائدتها والوصول إلى تقرير نهج أو عمل لاستدراك ما يتوقع حدوثه".⁴⁴

ولا يمكن أن يتساوى التصرف الفردي أو المبادرة الفردية مع العمل المحدّد المسؤوليات والصلاحيات:

"كلّ عضو له حق الإذاعة لحزبه.. ولكن إذاعته تختلف عن الموظف للإذاعة، بأنها ليست اختصاصية تقنية ولا تجري على منهاج منظم في صلاحيات ومسؤوليات".⁴⁵

³⁹ المرجع إياه، ص 322

⁴⁰ المرجع إياه، ص 204

⁴¹ أنطون سعادة: الآثار الكاملة، الرسائل، ج 1، ص 103

⁴² المرجع إياه، ص 162

⁴³ المرجع إياه، ص 353

⁴⁴ المرجع إياه، ص 352

⁴⁵ المرجع إياه، ص 379

يظنّ البعض أن النظام منافعٍ للحرية، لأن هذا البعض يخلط بين الحرية والتفقت الشخصي، ولا يرى النظام إلا قيوداً، فيهمل أمر الاجتماع الرسمي وغيره من الأعمال الحزبية النظامية، ويأبى الطاعة لأنها تمسّ كبرياءه الفردية.

السلطة بين الأمر والطاعة

أريد أن أستعين ببعض الفقرات من كتاب " منطق السلطة " للدكتور ناصيف نصّار حيث يقول: "السلطة بمعناها العام هي الحق في الأمر. فهي تستلزم أمراً ومأموراً وأمرًا، أمراً له الحق في إصدار أمر إلى المأمور، ومأموراً عليه واجب الطاعة للأمر وتنفيذ الأمر الموجّه إليه. إنها إذن، علاقة بين طرفين متراضيين.. فالمشكلة الأساسية الأولى في علاقة السلطة هي مشكلة الاعتراف بما تتقوم به من حق وواجب عند طرفيها. فإذا كان هذا الاعتراف تاماً ومتبادلاً، استقامت السلطة كعلاقة أمرية مشروعة." 46

وفي مقدّمة الدستور نجد أن الحزب قد تأسّس " بموجب تعاقّد بين الشارع صاحب الدعوة إلى القومية السورية الاجتماعية وبين المقبلين على الدعوة "، والتعاقد هنا - إذا جارينا تحليل الدكتور نصّار - هو بين "طرفين متراضيين" وينتج عنه الاعتراف بسلطة الزعيم وما يترتب على معتنقي الدعوة من واجب المدافعة عن قضية الحزب وتأييد " الزعيم تأييداً مطلقاً في كلّ تشريعاته وإدارته الدستورية "، (نلفت النظر إلى أن القسم الذي أزم الزعيم نفسه به، لم يكن شرطاً لقسم القوميين الاجتماعيين على الولاء للعقيدة والنظام القوميين الاجتماعيين وللزعيم) لذلك نرى الزعيم، الذي أقسم أن لا يستعمل " سلطة الزعامة إلا من أجل القضية القومية الاجتماعية ومصالحة الأمة" 47، لا يرضى بأن يفرط بحقّ الزعامة، فيقول مثلاً في رسالة منه إلى يوسف الغريب (وكان هذا قد هنأ الزعيم على كلامه مخاطباً إياه بـ " الرفيق " في موقف رسمي نظامي) : " لا تنسَ أن تهنئك ليس فيها فقط أنها موجّهة إلى الزعيم، بل فيها أيضاً أنها في موضوع غير موضوعك، فالعلم السياسي والفن الإداري والسياسي هما موضوع جديد لك. إن الأسلوب الذي استعملته هو جميل في حلقة أدبية ثقافية بين أفرادها، ولكنه ليس في محله في نظام دولي كنظام الدولة السورية القومية.. إنني أرى أن أكون زعيماً اسمياً. إنني أعرف شعورك بجمال تعبير " الرفيق " فهو جميل وأنا أحبّه ولا أرفضه. ولكنه تعبير له محله الروحي الذي يجب ألا يتعداه إلى المواقف الإدارية والسياسية التي يحتاج فيها القوميون إلى الشعور ليس فقط بالرفيق، بل أيضاً بالقائد الأعلى، بالزعيم، الذي يتجهون إليه ليأخذوا منه الأوامر والتعليمات والتوجيهات التي يصير التقيد بها بكلّ دقة، مهما كانت نظرياتهم الشخصية غير المسؤولة، ولا يعود يجري نقاش فيها وتردد، لأن هذين يقتلان مبدأ السلطة في الدولة ووحدة القيادة " 48

وفي رسالة أيضاً إلى جورج بندقي يقول: "ولكنك قد تكون تنتظر مني أنا اعتذاراً إليك على اللهجة التي خاطبتك بها، ذلك لأن الزعامة والأمر والطاعة والصلاحيات والمسؤوليات هذه أمور ضائعة بين "الإحساسات" السريعة الانشعاب وفوضى النظام الذي لم تمكني حالتي الصحية، حين كنت في البرازيل، من إعطائكم دروساً فيها.

د. ناصيف نصّار: منطق السلطة، مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج، الطبعة الأولى 1995، ص

47 أنطون سعاده: الدليل إلى العقيدة السورية القومية الاجتماعية، ص 5

48 أنطون سعاده: الآثار الكاملة، الرسائل، ج 2، ص 339

والذي أراه أن تساهلك في تقدير خطورة المسؤولية ناتج عن لغة المخاطبة الرسمية التي تستعملها معي، فهي لغة الرفقة والصحة لا لغة السائل تجاه المسؤول. إنها سهلة وتحمل بالترديد على الاستهتار.. ولذلك أطلب منك أن تستعمل اللغة الرسمية في جميع المراسلات الدائرة على الأعمال والمسؤوليات".⁴⁹

وقد يظنّ البعض أن الطاعة دليل ضعف، أو قد يخلط بينها وبين الخنوع، والحقيقة أن الطاعة هي دليل التزام وانضباط ورفقيّ نفسيّ ودقة نظامية. يقول الزعيم لجورج بندقي: "أهنتك بروحية الطاعة والنظام التي تتصف بها فهي تجعلك كبيراً وموهلاً لزيادة الاعتماد عليك"⁵⁰

والزعيم قد شدّد على ضرورة الطاعة في الكثير من توجيهاته: "الحركة القومية تحتاج إلى قدوة في النظام والطاعة أكثر مما تحتاج إلى نظريات وتصوّرات خصوصية متفرّقة".⁵¹

"إن التقيّد بعقيدة حزبنا وخطه وأهدافه والطاعة لقوانينه وفروض نظامه هما شرطان لا غنى عنهما لحقيقة عضوية الحزب السوري القومي الاجتماعي".⁵²
"صحيح أن الحزب السوري القومي يعدّ كلّ عضو من أعضائه جندياً وأن نظامه انضباطي يشمل الطاعة"⁵³

"لا تنسَ أننا في الحزب السوري القومي نشكّل وحدة نفسية نظامية قبل أي شيء آخر. ومقياس قومية كلّ عضو في مبلغ محافظته على النظام وتنظيم الواجبات والأعمال وليس في مقدار النظريات الخصوصية التي يضعها فوق النظام".⁵⁴
"يجب على.. الرفقاء أن يعلموا أن جميع الأعمال والمشاريع والحركات القومية في محيطهم خاضعة للنظام القومي. فكلّ عمل من أعمالهم وحركة من حركاتهم يجب أن تكون مقيّدة بالنظام".⁵⁵

"فمتى تمّم كل إنسان واجباته النظامية المعيّنة تحصل نتائج لا يراها، منذ البدء، كلّ الأفراد وقد لا يراها غير الذين أوجدوا المؤسسات وعيّنوا الوظائف، فالفرد ليس مسؤولاً عن معرفة صحة هذا النظام أو عدم صحته ومبلغ فائدته، بل عن تقيّده به وتنظيم واجباته".⁵⁶

ولكن هناك مسألة خطيرة جدّاً في موضوع السلطة، هي عندما يرى المرؤوس أنه أكفأ من رئيسه، فيرفض الأوامر ولا يعود يخضع للنظام.
يقول الزعيم لأحد هؤلاء: "فموقفكم موقف المدافع المجادل لا موقف المبدي وجوه نظر يسأل الموافقة عليها، كما يجب أن يكون".⁵⁷

ويقول لآخر: "عجباً أرفض النظام وأنت مرؤوس وتطلب المحافظة عليه من قبل الرئيس.. فكيف يكون موقفك وبأية سلطة أو قانون تقدر أن تقيم نظاماً كنت أحد الذين خرّقوه وحرقوه؟"⁵⁸

49 المرجع إياه، ص 217-218

50 المرجع إياه، ص 147

51 المرجع إياه، ص 87

52 المرجع إياه، ص 635

53 المرجع إياه، ص 163

54 المرجع إياه، ص 416

55 المرجع إياه، ص 410

56 المرجع إياه، ص 353

57 المرجع إياه، ص 869

58 المرجع إياه، ص 415

إن النظام القومي الاجتماعي لا يسمح بالإغضاء عن هذه المسألة، ولا يتساهل فيها، " إذ لا يجيز القانون والعرف القوميين لأي عضو أن يوقف تنفيذ أوامر الزعيم، حتى ولا أوامر مرجع أعلى مختص".⁵⁹ " ومتى صدر أمر الزعيم أو تعليمات منه.. فيجب أن يكون أمراً مفروغاً منه عند القوميين وعند الهيئات التي عيّنها الزعيم " ⁶⁰

وفي تاريخ الحزب هناك الكثير ممن وقع في هذا المسلك الانحرافي، من فايز صايغ وإعلان مسؤوليته "النهائية" عن نشرة عمدة الثقافة، الذي يعني "أنه لا يحق لمجالس الحزب ولا للزعيم نفسه التدخل فيها"،⁶¹ إلى جملة الأسماء اللامعة، خريجي المدرسة الكركيجارديّة، إلى لجنة مديرية بوانس أيرس، واقتراحها بخلع الزعيم لإقدامه على الزواج. وقد واجه الزعيم هذا الانحراف بحزم شديد، وهو في إحدى الرسائل يذهب في الموضوع إلى آخره، فيقول: "إذا كان أحد يعدّ نفسه أكفأ من الزعيم لتسيير سياسة الحزب والقيام بأعباء سلطته، لاعتقاده أن الزعيم، ما أخذ الزعامة إلا صدفة، إذ لم يكن الأكفأ منه موجودين حين تقرير مسألة الزعامة ولمن يجب إسنادها، فهذه المسألة يمكن أن تعرض على مجالس الحزب للنظر فيها من أساسها، لكي تجري الأمور بصورة قانونية وضمن النظام. وهذا أفضل كثيراً لمستقبل الدولة القومية من كسر النظام بتجاهل وجود السلطة التي هي سلطة حقيقية كما يجب أن تكون".⁶² وأيضاً: "إني أفضل أن يزول الحزب كله على أن يقوم .. على أساس الفوضى أو الامتيازات الشخصية غير المستحقة".⁶³

كلّ منا يرى أموراً ويتصوّر أشياء، قد تتطابق وقد تتمايز وقد تختلف، ولكن ما قيمة هذه التصورات وهذه الآراء، وما الفرق بينها وبين الخطة المرسومة والتدبير المتخذ؟

في حدود الرأي

إن الرأي "في حدّ ذاته هو الفكرة التي تواجه فكرة أخرى ممكنة عن الموضوع نفسه".⁶⁴ وللرأي صفات عديدة، فهو قد يكون فردياً، إذا كان عبارة عن تصوّر شخصي حول مسألة ما، بسيطة كانت أم مركبة. وهو قد يكون عاماً، بمعنى أنه جماعي، إذا كان هناك إجماع حوله. ومتى كان الإجماع حاصلًا " في اتجاه واحد أساسي هو اتجاه الأمة ومصالحها العامة"، كان الرأي العام " قوة اجتماعية سياسية خطيرة الشأن. ولكن هذه القوة معرضة أبدأ للعوامل الروحية والثقافية.. وهي لا تكون راسخة إلا في المسائل المستمرة التي تعمل عوامل مستمرة على إكسابها صفة الثبات بواسطة الأساليب الثقافية والتقاليد المرعية.. فالإشاعات للرأي العام كالريح للريشة." و"متى تضاربت الاتجاهات الأساسية في أمة من الأمم، واختلفت العقائد والعوامل الثقافية، ولّد هذا التضارب وهذا الاختلاف، رأياً عاماً مبلبلاً متفسخاً لا يتمكن من الإجماع على قضية عامة أو مصلحة عامة، وزعزعا الوجدان القومي الصحيح ومنعا تولد ما يسمّى في العلوم السياسية «الإرادة العامة»"⁶⁵.

⁵⁹ أنطون سعادة: الآثار الكاملة، الرسائل، ج 1، ص 285

⁶⁰ نفس المرجع إياه، ص 100

⁶¹ أنطون سعادة: الدليل إلى العقيدة السورية القومية الاجتماعية، ص 53

⁶² نفس المرجع إياه، ص 286

⁶³ نفس المرجع إياه، ص 250

⁶⁴ د. ناصيف نصّار: منطق السلطة، مدخل إلى فلسفة الأمر، ص 96

أنطون سعادة: مقالة: الرأي العام، جريدة «النهضة»، العدد 27، 13 تشرين الثاني 1937، ونشرة عمدة

⁶⁵ الإذاعة، العدد 68/6 ص 4

قلنا إن الرأي يكون عامًا، إذا كان هناك إجماع حوله، ولكن الإجماع حول رأي ما لا يعني بالضرورة أن المجمعين متطابقون في الوعي والفهم والتصور والفعل. والإجماع من جهة أخرى ليس بالضرورة مصدر حقيقة، لأن الحقيقة لا يقررها العدد.

ولقد وصف سعيد تقي الدين هذا المصطلح بالبغل، ضعيف الدماغ، كثير اللبب، وهو يريد أن يدل على ما قد يصاب به الرأي العام من جهل وتعتت.

أمّا الأديب الناقد مارون عبّود فقد وصف الرأي العام بالتالي: "الرأي العام غوغاءٌ يتراكضون خلف عدوّ أفلت منهم، يستطيع أن يحولهم معنوه واحد عن وجهتهم - وهم منات - فيمضون حيث أشار، ولا يسألون ولا يفكرون".⁶⁶

وفي روايته: عدوّ للشعب An enemy of the people يخاطب الكاتب النرويجي إِبسن Ibsen إحدى الشخصيات قائلاً: هناك عقيدة ورثتموها عن أجدادكم وأنتم تقومون بنشرها الواسع، بكل بلاهة، ألا وهي عقيدة أن الرأي العام، القطيع، الجماهير هي جوهر الشعب.."⁶⁷

ولهذا المصطلح دلالة أخرى عندما يعني الرأي الأولي، البسيط، غير المختص. وهذا النوع من الآراء الشخصية العمومية، هو الأكثر انتشاراً، فهذه الآراء متعدّدة تعدّد الأفراد، لا بل قد يصدر عن الفرد الواحد آراء مختلفة وفق حالاته النفسية وإسقاطاته، وهذا ما يذكرنا بمذهب أفروطقورس الصفستي (الفسطائي) وبالقول المنسوب إليه على لسان صكرات: "إني، لنفسي، حكم في ما هو موجود وما ليس موجوداً لي". فينتج عن ذلك أن يصبح "كلّ فرد هو لنفسه مقياس الحقيقة شعوراً ومعرفة، فلا تكون هناك حقيقة واحدة بل حقائِق [وآراء أيضاً] عددها عدد الأفراد وعدد الحالات التي يمرّ بها الأفراد".⁶⁸ وهذا المبدأ نقضه الزعيم موضحاً أنه يوصل إلى الفوضى. وسأضرب مثلاً على ذلك:

يصف الزعيم في رسالة منه إلى غسان تويني كيف يحكم فخري المعلوف على الوقائع وفق حالته الخاصة، فيقول: "وكنت ألاحظ أن رسائله هي دائماً نتيجة وضعيته الخاصة، فهو إذا كان منصرفاً بكلّيته إلى دروسه وأعماله الخصوصية في الجامعة وبيئته، احتاج إلى تعليل جمود الحالة بضعف الإمكانيات فيصف بعد السوريين والمغتربين عن الشعور الوطني القومي واندماجهم في البيئة الأميركية وعدم سهولة العمل معهم. وإذا وجد فرصة ونشط للعمل القومي واحتكّ ببعض الأوساط السورية وتبادل الرأي مع جماعة، تبدت له إمكانيات العمل فأرسل يصف الإمكانيات الجيدة ويتفاعل بنتائج العمل الجدّي".⁶⁹ وإن هذا المثل يتعدّى الشخص المذكور ويمكن أن ينطبق على الكثيرين.

وقد نبّه الزعيم من خطر الآراء الشخصية السطحية وما تحملها من استبداد، وفيما يلي مقتطفات من بعض توجيهاته في الموضوع:

"أطلب منك.. أن تتمعن في التوجيهات وتفهمها جيّداً، فهي ليست آراء أو وجهة نظر شخصية بل اتجاه خطة عامة".⁷⁰

⁶⁶ عبّود، مارون: «مجدّدون ومجتربون»، دار مارون عبّود - دار الثقافة، بيروت، ط 5، 1979، ص 14.

Ibsen.volume : An enemy of the people, the Wild Duck, Rosmersholm,

⁶⁷

Oxford University Press, London, 1960, p.54,p.67

⁶⁸ أنطون سعاده: الدليل إلى العقيدة السورية القومية الاجتماعية، ص 244

⁶⁹ أنطون سعاده: الآثار الكاملة، الرسائل، ج 2، ص 570

⁷⁰ المرجع إياه، ص 36

" ألفت النظر إلى أن الرأي لا يكون في حد ذاته حكماً ولا يعطي صلاحية. فقيمة الرأي هي في أنه رأي ولا أريد أن تتدخل الآراء في التعليمات والتوجيهات وتعطلها. وحدوث شيء من ذلك ينفي أساس النظام." ⁷¹

" إن كثيراً من الذين انضموا إلى الحركة يظنون أن العمل القومي بكثرة الكلام والآراء والتخيلات وبعدم التقيد بنظام." ⁷²

" للأعضاء حق إبداء الملاحظات والآراء للمراجع الإدارية فقط، كما ينصّ دستور الحزب. وهذا يعني أنه يجب أن يمتنع الأعضاء عن إشاعة ملاحظات في أوساطهم لا يدركون مدى عواقبها ولا مبلغ صحتها." ⁷³

" إن الأصول في كلّ منظمة أن من له رأي مستند إلى دراسة حقيقية وعلم وخبرة لا يجوز له التصرف من تلقاء نفسه حسب رأيه، بل يتوجب عليه إبداء رأيه للمراجع المختصة المؤهلة لإدراك أهمية رأيه وحقيقته، وانتظار قرار هذه المراجع، فإن كثيراً من المثقفين ثقافات متنوعة وأحياناً مختلفة يرتأون آراءً بسيطة أو غير تكتيكية متعددة، فإذا قام كلّ منهم بتصرف بموجب رأيه انفرط عقد المنظمة أو صار وجودها كالعدم." ⁷⁴

كلما كثر الكلام، كثرت الوسوسة والهمهمة والقرقرة وقلّ العمل، و"طوائف المتكلمين" أنواع وأشكال، كما يقول جبران، لعل أسوأها طائفة "المستبومين" العاجزين، وأقبحها طائفة "المستهزئين" الخاملين، وأخبثها طائفة "الأجراس" ⁷⁵ الكذابين الدجالين.

اللاجحة بنت الاتكالية

قلنا في مقدّمة هذه الدراسة إن الرسائل العظيمة تحتاج إلى عاملين متدبرين وليس إلى اتكاليين مشككين. فما هو السبب الذي يقف وراء خمول هؤلاء الأخيرين؟ قد يكون السبب أن الحرية حمل ثقيل لا تحتمله نفوس هؤلاء القاصرين. وفي الحقيقة يبرّر الاتكالي بلادته وجبنه وعجزه (البلادة ضعف العقل، والجبن ضعف القلب، والعجز ضعف الساعد) قائلاً: "ماذا أفعل منفرداً؟"، ويلقي باللائمة على الآخرين سائلاً: "ماذا فعلتم؟". وهو لا يسأل السؤال الأخير، إلا ليدّعي لنفسه نصيباً في عمل الآخرين وجهادهم، وليأكل الكستناء دون أن يحرق أصابعه. إن الاتكالي لا يفعل إلا أمراً واحداً وهو التثرثرة.

وكثيرة هي الأمثال الشعبية التي تحضّ على العمل وتؤنّب الثرثار كثير الأسئلة، نذكر منها: رأس البطل معمل الشيطان. إذا سأل أحف ⁷⁶، وإذا سئل سوف دخل فضولي النار فقال الحطب رطب. من صبر ظفر ومن لجّ كفر.

والزعيم قد ألمته جدّاً كثرة الكلام وقلة العمل، فنراه يعبر عن ألمه، في الكثير من رسائله، حيث يقول في إحداها: "أما أن يقوم فرد واحد بالتخطيط، وبالهدم، وبالتعمير، والآخرين يساعدونه بالآراء، والانتقادات، والنصائح، والتمنيات، بينما المعاكسون يهاجمون ذلك الفرد ويرمون بالافتراءات ويطنعون فيه عند مئات من الناس، يصغون

⁷¹ المرجع إياه، ص 39

⁷² المرجع إياه، ص 401

⁷³ المرجع إياه، ص 410

⁷⁴ المرجع إياه، ص 337، أنظر أيضاً ص 443

⁷⁵ أنظر جبران خليل جبران: العواصف، مقالة "الكلام وطوائف المتكلمين".

⁷⁶ ألح: ألحّ

السمع لأولئك المعاكسين، فافتراض صادر عن عقلية يجب أن تتغير بعد لتصبح أصلح للقيام بنصيبتها من النهضة".⁷⁷

وأيضاً: " فلماذا هذه المناقشة الحارة والمطالبية المستعجلة بالشروح والتفاصيل لهما، من غير نظر في الظروف المحيطة بمكتب الزعيم الخالي من نواميس وكتبة تتوزع عليهم الأعمال الكثيرة الواجب القيام بها لسير الحركة؟ ... فمبدأ الثقة والروحية القومية العالية يوجبان عدم تعكير خطط الزعيم بكثرة الأسئلة".⁷⁸

وفي رسالة إلى وليم بحليس يقول: " تشير عليّ أيها الرفيق أن أكتب إليه [إلى الرفيق فؤاد لطف الله] وكنت أفضل لو أنك حثتته على الكتابة إلى زعيمه الذي بقي نحو سبع سنوات يتخبّط في هذه البيئة المنحطة الأخلاق بلا أعوان، وحيثما التفتت ورأى بصيص نور، وجد أشخاصاً يريدون منه أن يصرف قواه في الاهتمام بأرائهم بدلاً من أن ينصرف إلى معالجة قضية الأمة وتخطيط السياسات وحلّ قضايا الفكر الأساسية. هم يطلبون من الزعيم كتابات وكتابات كلها في مسائل شخصية فردية، أما قضايا الأمة الكبرى الاجتماعية والاقتصادية والخلقية والثقافية والأدبية وغيرها فهذه لا حاجة إلى فكر الزعيم فيها، فيكفي الزعيم أن يحظى بقبضة آراء من كلّ واحد منهم ويعمل بها ليقود الأمة إلى طريق الهدى".⁷⁹

وأيضاً: " لا انقاذ للأمة من مصير التضعف والهلاك إلا بحركة أصلية تقيم مجتمعاً واحداً وعقلية جديدة وشعوراً واحداً. وإن هذه الحركة قد وجدت، وإن عملية الإنقاذ تجري، ولكنها عملية طويلة شاقة. فلا نكن لجوجين، بل لنعمل مؤمنين بقوة الحركة القومية الاجتماعية ومقدرتها على التغلب على كل صعوبة".⁸⁰

معظمنا قد يتورّط بأفكار وهمية، إذ نحلم أحلاماً طفلية بكذا وكيت، عوض أن نبدأ ببناء أنفسنا. يصف الرفيق جورج عبد المسيح هذه الحالة في مؤتمر للمسؤولين الإداريين عقد في 15 حزيران 1991، يقول:

"إن الذين لم يعانون الحرث والغرس والعناية بالنبت الصالح أتوا اليوم للقطاف، ومنهم رفقاء ضلّوا الطريق فنراهم يحومون حولنا وأحياناً يشعر الانسان أنهم وبعد كلّ هذه السنوات لم يفهموا شيئاً.. والمصيبة أنك تكلمهم ليروا الحقيقة فيأخذون بإعطائك توجيهات. فيأتيني واحد أعطيتّه مجموعة كاملة في كلّ ما كُتّب عن الحزب السوري القومي الاجتماعي، من كتبٍ ومجلات وجرائد لأنه أبدى بعض الحماس ويعطي محاضرات وإلخ.. يأتيني بمناسبة أو غير مناسبة ليقول لي: " مصيبتكم أنكم مقصرون كثيراً. كان يجب أن يكون عندكم مدارس. كان يجب أن يكون لديكم مجلات وجرائد. كان .. كان.. " وهذه المجموعة التي بين يديك ما هي؟ هل طالعتها؟! قال : الحقيقة لم يتسنّ لي الوقت بعد لأطالعها.

هذا نموذج من عشرات المستغلين. وأحياناً إذا لم يكن الرفيق صلّباً يبدأ بالتشكيك عندما يأتيه واحد من هؤلاء ويقول له أما زلت تؤمن أن في النفس السورية كل حق وكل خير وكل جمال في العالم، وأن هذا الشعب أصيل رغم كل المساوي؟!⁸¹ أختم:

⁷⁷ أنطون سعاده: الأعمال الأدبية ج 2 ص 253

⁷⁸ الأعمال الأدبية ج 2 ص 248 - 249

⁷⁹ المرجع إياه، ص 777-778

⁸⁰ أنطون سعاده: الدليل، ص 144

⁸¹ النشرة الرسمية للحركة السورية القومية الاجتماعية، عدد 5 / 59 ص 11

إذا كنا نريد حقًا أن ننتصر، علينا أن نعمل دائماً بهدوء واطمئنان، "تحت طبقة الثرثرة والسياح المنتشرة فوق هذه الأمة،" وأن نتمسك بإيماننا القومي الاجتماعي كلّ التمسك وأن نصبر على الشدائد والمكاره كلّ الصبر، فالصبر هو فراقُ بين⁸² العاملين المجاهدين وبين الأعداء المتكلمين.

ولنعمل بكلّ عزم لئلا ينطبق علينا قول المعريّ الخالد:

وكلّ يوصي النفس عند خلوّه بزهد ولكن لا تصحّ العزائم⁸³

⁸² البين: الوصل، الرابط، الصداقة..

المعريّ، أبو العلاء: فصل الميم، «اللزوميات أو لزوم ما لا يلزم». أشرف عليه عمر أبو النصر. دار

⁸³ الجيل، بيروت، 1969، ص 208.